# الفصل الرابع
# الأدوار الثقافية الأولى قبل التاريخ

## 1 . من القرية الحجرية إلى المدينة الفخارية:

لقد كان التحول من العصر الحجري الحديث إلى التاريخ تحولاً بطئ التطور، فقد انتقل الإنسان من قرى صغيرة في سفوح زاجروس وطوروس إلى مواطن مدنية واسعة نسبياً.. ومن العائلة والبطون القبلية إلى مجتمعات زراعية ورعوية أكثر تعيداً، وتنظيماً وتراتباً وثقافة. إننا نستطيع الحديث عن هذا التحول بخطوطه العامة ونتعرف على آلية تطوره ولكننا لا نملك تفاصيل عن دقائقه، لأن البحث فيه ما يزال مستمراً، وما يزال يعتمد اللقى والأدوات دون الكتابة أو النصوص. ولكن الاكتشافات الحديثة التي تتم كل سنة في تلال آثار ما قبل التاريخ ما انفكت تدل على صحة المعارف التي تحققنا منها سابقاً.. ولا يزال صحيحاً القول إن الحضارة المنسوبة إلى السومريين ليست بكليتها من ابتدعتهم، وإنما هم مدينون إلى جماعات بشرية سبقتهم وشاركتهم ابداعاتهم الحضارية المهمة فهي لم تمل من الخارج إلى بلاد الرافدين كما لم تكن منعزلة عن بقية جيرانها من الحضارات. والحضارات القديمة مشابهة لهذه الحديثة في إختلاطها وامتزاجها ولك منها يغرف من حضارات أخرى ويشكل عجينته الخاصة به. وما أن تظهر الدلائل الأثرية من بناء وكتابة ومعارف أدبية وفنية حتى نتمكن من تأريخها في الزمان والمكان ونقطع الشك باليقين والعلم. فمما لا شك فيه أنها أي تلك الحضارة ظهرت في العراق والشام أولاً، ولكنها حملت تأثيرات خارجية منذ البدء، وهناك من العوامل والتأثيرات ما هو مستورد مئة بالمئة[1].

وقد زادت الحفائر الحديثة من إظهار الدلائل التي تؤيد ما تقدم في معظم أنحاء الشرق الأوسط والشام وبخاصة العراق، وساعدت على فهم أكثر للثقافة في العصرين

---

(1) Buringh, Sails and soil condition in Iraq, Baghdad, 1960.

الحجري الحديث والنحاسي. وقد سمحت تلك النتائج الأثرية المعرفة من إنشاء سلم زمني تقريبي للعصور الطويلة التي مر فيها الإنسان في العراق والشام في عصور ما قبل التاريخ مباشرة. بالاستعانة بقياس الإشعاع في الكربون المتبقي في المواد الحية وهذه الأدوار هي[2]:

| | | |
|---|---|---|
| 1 . | دور موقع حسونة | 5800 . 5500 قبل الميلاد. |
| 2 . | دور موقع السامراء | 5600 . 5000 قبل الميلاد. |
| 3 . | دور موقع حلف | 5500 . 4500 قبل الميلاد. |
| 4 . | دور موقع العبيد (رقم 1+2) | 5000 . 3750 قبل الميلاد. |
| 5 . | دور موقع أوروك | 3750 . 3150 قبل الميلاد. |
| 6 . | دور موقع جمدت نصر | 3150 . 2500 قبل الميلاد. |

وقد تميز كل دور من هذه الأدوار بمجموعة من العوامل مثل الفخار والبناء والعمارة والتماثيل المشخصات والأختام وأدوات أخرى حملت جميعها اسم الموقع وصارت أنموذجاً يقاس عليه. رغم أن هذا الموقع أو ذاك ليس هو الأهم أو أقل أهمية من غيره. بل صارت مجموعة عوامله تشكل ثقافة أولية معترف بها. ويختلف الاتساع الجغرافي لكل من هذه الأدوار الثقافية ويختلط بعضها ببعضٍ ويتعاصر الواحد تلو الآخر. كما نلاحظ بعض الاختلافات أو المميزات المحلية في كل دور وآخر، بل إن هذا السلم ليس دليلاً تقريبياً يؤطر التبدلات الثقافية للبشر الذين تعاقبوا خلال ثلاثة آلاف عام سبقت بزوغ فجر الحضارة السومرية أو بالأحرى السومرية . الآكادية.

## 2 . ثقافة حسونة

يقع تل حسونة على بعد خمسة وثلاثين كلو متراً جنوب الموصل. وقد بدأ الحفر في فؤاد سفر وسيتون لويد Seten Lloyd لحساب مديرية الآثار العراقية عام 1943.

---

(2)

R. W. thrich (ed.) Chronolgies in old World Archeology, Chicago, 1992.

وقد عثر على فخار ضخم على أقسى متسويات لحفر، أي مستوى الأرض العذراء. ودل هذا الفخار والأدوات الحجرية الأخرى على حياة حجرية حديثة في خيام أو أكواخ، ولم يعثر على آثار بنائية[3].

أما المستويات العليا فقد عثر على ستة منها على بيوت أفضل من حيث هندستها المعمارية، وهي تشابه البيوت الطينيية وسقوف القش والأغصان التي ما تزال تبنى حتى وقتنا الحاضر في جنوب العراق وشماله. وتتوزع ست حجرات حول باحة . في أحد البويت . مع زاوية تفصل بين جزئي البيت الذي خصص قسمه الأكبر للمعيشة والباقي للمطبخ وللمستودع. وقد حفظت الحبوب في مخزن فخاري كبير مغروس في الأرضية حتى حوافه، وكانوا يخبزون في فرن يعرف بالتنور (وهي كلمة آكادية) على شكل مخروط مفتوح من الأعلى يشبه إلى حد بعيد ما هو مستخدم في كثير من القرى حتى يومنا هذا. وعثر في الأرضية المليئة بالكسر الفخارية وآثار القش في الطينة على Mortier وفأس حجري وعدد من الأدوات الصوانية منها أنصال لمنجل ومنزل Fusaides من التراب المشوي وبعض المشخصات منها امرأة عارية في وضعية الجلوس. وعثر داخل المساكن تلك على جرار كبيرة، تحتوي عظام أطفال، وبجانبها كؤوس صغيرة ومزهريات وآنية مكرسة لخدمة الميت في العالم الآخر. بينما يدهش المرء عندما، يرى أن عظام الكبار قد أودعت في زاوية دون أدوات طقسية. وفي وعاء من الفخار. دون اهتمام يذكر. هنا، وبعد دراسة بعض الجماجم في هذا الموقع، تبين أنها من نمط إنسان حوض البحر الأبيض المتوسط الذي عرفناه منذ العصور الحجرية القديمة العليا حتى العصور الحجرية الحديث وانتشر في معظم أرجاء المشرق.

ويقسم الفخار الذي عثر عليه في تل حسونة إلى قسمين أطلق على الأول صفة بدائي والثاني انموذجاً. وينتشر الأول في المستودعات الثلاثة الأولى، وهو فخار سميك غير مزين، ولكن هناك قصعات لصباغة النسيج ملونة بالأسود والغباري حسب التقانة

(3) JNES, 4, 1945, PP. 255 – 289 .

المستخدمة. وهناك طاسات وجرار كروية الشكل، وأعناق قصيرة ومستقيمة، وملونة ومزينة ببعض الرسومات البسيطة (خطوط، مثلثات فؤوس، إطارات) باللون الأحمر.

أما الفخار الثاني الانموذجي المنتشر في المستويات بين الرابع والسادس فتضم الفخار نفسه، إلا أنه أكثر تلويناً، وتزييناً. هذا وقد شبه فخار حسونة بغيره من المواقع المجاورة في تركيا (ساكس جوزو، ومرسن) وفي سورية (كركميش . جرابلس، وسهل العمق) وفي فلسطين (مجدو وأريحا)، إلا أن فخار حسونة الانموذجي لم يعثر على شبيه له هاهنا، بل ظل مقتصراً على محيط حسونة وشمال شرق العراق[4]. كما يمكن التقاط كسر الفخار السميكة تلك على سطح الأرض في مواقع على ضفاف الدجلة (جبل حمرين) وكذلك في نينوى وموقع مطرح شمال كركوك وشمشارة. (رو ص 60). ونعثر على هذا النوع من فخار حسونة الخشن في ياريم تبي قرب تل عفر، حيث عثر على بيوت مستديرة (قبة)، وأدوات فخارية من أنماط سبق وصفها، وأقراص حجرية وفخارية مثقوبة وغير مثقوبة. وقد كان بعض هذه الأقراص يُعلق في العنق، وهو ليس إلا ختم شخص غايته تعليم الممتلكات الخاصة على كرات من الفخار أو فوهات الجرار. هذا وتعد هذه الأختام البدائية الأقدم في تاريخ الإنسان وهي أصل الأختام الاسطوانية التي ستصبح صفة خاصة تميز حضارة بلاد الرافدين والشام بما فيها لبنان والأردن وفلسطين والخليج العربي وأعالي مصر.

ومن جهة أخرى، هناك تل أم الدباغية الذي يقع على بعد 48 كم من يا ريم تبي في سهول خصبة ماطرة في الجزيرة العليا، وقد حفرته الآثارية ديانا كركبرد Diana Kirkbride بين 1971 . 1973. وقد عثرت في الموقع هذا على آثار حياة صيد وبداوة، وبعض فخار حسونة القديم. إلا أنه يمتاز عن تل حسونة ببيوت قد غُطيت أرضياتها بالطين الفخاري على شكل بلاط. وهو الاختراع الذي سيكون بداية لصناعة

(4)

T. Dabbagh, «Hassunan Pottery». Sumer, 21, 1965 PP. 93 – 111.

الطوب الفخاري المشوي الناعم. كما عثر في موقع الدباغية هذا، على صور حيطان، تمثل مشهد صيد الحمار الوحشي، عنكبوتاً وبيوضها. ونسر طائر، ومن المرجح أن هذا المكان كان للعبادة. وعثر على عدد من الكؤوس المرمرية البيضاء الرائعة بصناعتها. ويضم الفخار هنا، قصعات وجرارا دقيقة الصنع، ومشخصات إنسانية وحيوانية من الطين المهيأ للشي. وهناك تلال من انموذج حسونة وثقافتها تقع على الخابور، وكذلك المستوى الخامس من موقع رأس شمرا السوري، وتشاتال هيوك في الأناضول وبخاصة الرسم الجداري المنوه عنه أعلاه. وليس مدهشاً أن تنتقل ثقافة ما قبل التاريخ بين هذه المواقع ذلك أن طرق المواصلات نحو الشمال والغرب قد كانت نشطة منذ ذلك الوقت. هذا ويمكن تأريخ الثقافات المجاورة لحسونة بين 6010 و 5090 بزيادة نقصان لا تزيد عن مئتي سنة، وذلك بفضل قياسات الكربون 14.

**3 . ثقافة سامراء:**

يظهر لنا في المستويات العليا من مواقع حسونة ونظائره مثل مطرة Matarrah وشمشارة وياريم تبي نوع من السيراميك أو الفخار الأكثر جمالاً، الذي سيغدو منتشراً وسيعرف باسم مدينة السامراء. وقد عثر عليه منذ عام 1912 . 1914 في موقع مقبرة تعود لما قبل التاريخ تحت طبقات من العصر الوسيط لتلك المدينة التي اشتهرت بمئذنة جامعها الحلزونية.

أما ألوان هذا الفخار السامرائي الجديد فهي البني الفاتح جداً «بيج» المائل إلى الحمرة، ويشمل صحوناً كبيرة، وأقداحاً ذات بطون، وقد زينت المزهريات والأباريق الفخارية برسومات هندسية، ولونت بالأحمر القاني، وبالبني والبني البنفسجي بصورة متناسقة، وهناك رسومات تمثل رجالاً ونساءاً وطيوراً وأسماكاً وعقارب وحيوانات أخرى. وزينت بعض أعناق الجرار برسومات نافرة لوجوه إنسانية، مرسومة بدقة ولها نمط خاص رشيق ومتوازن. وقد كان الإنسان الذي رسم هذا الفخار فناناً كبيراً ولا شك (رو 61). وقد كان يظن أن هذا الفخار قد جاء من إيران، أما الآن فقد تبدل الأمر، وتبين أنه فخار فراتي رافدي سامرائي، وينتمي إلى ثقافة طالما كانت مجهولة، وظهرت وسط وادي

الدجلة نحو النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد. ولم يعرف الكثير عن هذه الثقافة إلا بعد الحفائر العراقية في تل الصوان. وهو هضبة اصطناعية تمتد على ضفة الدجلة اليسرى، على بعد أحد عشر كيلو متراً من سامراء[5]. وكان سكان هذا الموقع، كأسلافهم من سكان حسونة، قد اعتنوا بالزراعة وتربية الحيوانات والصيد. واستخدموا من أجل ذلك المقاليع ورؤوس سهام متشابهة، ويبدو أنهم مارسوا أول محاولة متواضعة للسقايا الزراعية، مستخدمين طوفان الدجلة لسقاية حقول القمح والشعير والشوفان والكتان، وهذا يعني أن المحاصيل كانت وفيرة. وقد حصن مركز الموقع ضد اعتداء متوقع، حيث ظهر خندق بعمق ثلاثة أمثال وعرض مترين ونصف متر وجدار من الطوب السميك المدعم. وكانت البيوت فسيحة وذات مخطط منتظم، وتضم عدداً من الغرف وباحة، ولم تعد مبنية من الطوف والأغصان بل من الطوب أو اللبن الفج غير المشوي الممدد على شكل لفافة وغطيت الأرضيات والجدران بطبقة رقيقة من الجص. وعثر في البيوت هذه على أعداد من المزهريات والصحون الفخارية من نمط سامراً الخشن والرقيق، بالإضافة إلى غارين من الرخام الشفاف جميل الصنعة، وأختام مسطحة بسيطة من النمط الذي سبق ذكره. ودُفن تحت الأرضيات أشخاص على طرف بوضعية كومة معقودة، ومغلقة أحياناً بطبقة من الطين والقار. أما الأطفال فقد دفنوا في جرار أو قصعات واسعة. وعثر في هذه المدافن على آثار مهمة، من الشخصيات الفخارية والجصية لأشخاص واقفين أو جاثين، ونساء خاصة، وبعض الرجال. ويوجد بين هذه المشخصات الفخارية، ما هو مصنوع من نمط معروف هو نمط العبيد، بعيون نافرة فخارية، على شكل حبات قهوة. بينما بقية المشخصات فإن عيونها واسعة ومفتوحة. وأهداب من القار تشبه نمطاً سومرياً أكثر حداثة (رو ص 62). وهذا ما يؤدي بنا إلى الاستنتاج المهم التالي: ألا وهو أن السامرائيين وثقافتهم هم أسلاف العبيد وثقافتهم، وأكثر

(5) ن: تقرير شامل في سومر 21 . 26.

J. Mellaart, The Neolithic of the Near Wadt, London 1975 PP. 149 – 154; J. Date «The baked clay figurines from Tell all – Sawwan» Iraq, 28 , 1966, PP. 146.

من هذا، فلربما هم أسلاف السومريين وثقافتهم، وما علينا سوى الحذر من استخدام هذه النتيجة!.

لم يعثر حتى يومنا هذا، على موقع أو قرية مشابهة لموقع تل الصوان القديم. إلا أن فخار السامراء والموقع التي ذكرناها قد انتشرت في منطقة تمتد من بلاد الرافدين الوسطى والبادية منذ موقع باغوز Baghiz على الفرات الأوسط حتى شكربزر Chagar Bazar في الجزيرة السورية حتى شوجاماي Choga Mami قرب مندالي على الحدود العراقية الإيرانية اليوم، حيث مارس الإنسان في هذه المواقع السقاية عن طريق القنوات، وقد عثر جون وتس Joan oates على شخصيات نسائية ملونة، وعيون بحجم حبات القهوة تذكر بمشخصات تل الصوان، وعثر على فخار نمطي تقليدي انتقالي بين فخار سامراء ونظيره في أريدو Eridu وموقع حجي محمد، حيث نجد أن للمواقع الثلاثة ما يخصها من أشكال تقليدية نمطية.

وقد عد فخار الموقعين الآخرين النموذج البدائي لفخار العبيد، ولكن لا علم لنا حتى الآن إذا كان هناك تبادل وتعايش مع فخار قادم من الشمال أو لجنوب؟.

هذا ويدل اختبار الكربون 14 على التواريخ التالية 5349 ± 150 و 5506 ± 73 كتاريخ لموقع تل الصون 48960 ± 182 للمستوى التقليدي الانتقالي في موقع شوجاماي وغيره في الجوار.

**4 . ثقافة حلف**

يدل هذا الاسم على الدور الثالث لما قبل التاريخ الرافدي في موقع تل حلف المطل على ضفة الخابور قرب نبعه، وقرب قرية عين العرب، على الحدود السورية التركية. هنا اكتشف الألماني، ماكس فون اوبنهايم، قبيل الحرب العالمية الأولى، اكتشف قصراً لملك آرامي صغير يعود للقرن العاشر قبل الميلاد. وظهر تحته طبقة سميكة من فخار جميل وملون. ولم تُنشر نتائج هذا الاكتشاف إلا في عام 1931 (رو 63). حيث لم يعرف الكثير عن ما قبل التاريخ المشرقي وأظهرت دراسات تأريخ الفخار لتل حلف الأولية تناقضات خطيرة، حتى إن أوبنهايم نفسه اعتقد للوهلة الأولى

أنه أمام فخار أغريقي؟. ولكن، بعد سنوات من الحفائر البريطانية في نينوى وتل أرباخيا قرب الموصل وتل شكربزر في الجزيرة السورية والحفائر الأمريكية في تب جورا شرق أرباخيا، فقد تحدد المضمون الثقافي لهذا الفخار الجديد ووضع في مكانه على السلم الزمني. وكان آخر تلك التأكيدات على مضمون الثقافة الخلفية الجديدة. قد قدمته الحفائر السوفييتية (سابقاً) في الموقع رقم 2 من تل ياريم تبي: وقد كانت هذه الثقافة خاصة ومتميزة لدرجة أنها عُرفت للوهلة الأولى وكأنها غريبة عن البلاد.

ونرى في بعض القرى الكبرى التي رصفت أزقتها جهوداً معمارية متواضعة، مثل ذلك في موقع ارباخية. ورغم أن مواد البناء هي الطوف واللبن، فقد ظلت البيوت صغيرة المساحة، ولها نمط القبة المستديرة التي دعيت من قبل الآثاريين الغربيين Tholoi (انظر الأشكال في آخر الكتاب)، وهي تشبه القبور الميكينية. وقد عثر في باريم تب على بيوت دائرية قبيبية صغيرة وبعضها مؤلف من قسمين ومحاط بصالة مستطيله أو جدار مركزي. أما البيوت الدائرية Tholoi في أرباخية فهي أكبر نسبياً وتصل أبعادها إلى عشرة أمتار. وقد عمرت على أساس حجري خام، ويسبق بعضها دهليز أو مدخل، يزيد في شبهها بالقبور الميكينية الأحدث. وقد كان حجم هذه الأبنية، والعناية ببنائها وترميمها، وكونها فارغة دائماً عند العثور عليها، قد دفع الآثاريين للاعتقاد بأنها أبنية معابد أو مصلى أو ما شابه، إلا أن الحفائر التي جرت في ياريم تب قد دلت على أن تلك البيوت الدائرية ذات القباب ليست إلا بيوتاً سكنية قمعية الشكل ما نزال نشاهدها في ريف حلب والجزيرة حتى اليوم[6]. ولكن الواقع، أن البناء أو البيت الوحيد الذي يمكن عده مصلى أو معبداً هو زاوية مربعة اكتشفها مالوان Mallowan (المرجع نفسه) في تل أسود في وادي نهر البليخ السوري، ويضم مقعداً أو مصطبة من الفخار الطيني (وهي عنصر معماري قد ارتبط بخزنة مقوسة في مواقع أخرى)، وعثر على باب لها، وجمجمة

(6)
M. E. L. Mallowan, Twenty – five years of Mesopotamian Discovery P. 41. Fig 16.

بقرة أو ثور بقرون، تذكرنا بتل مريبط وصف جماجم الثيران التي تزين معبد المستوى الرابع في تشاتاك هيوك، والمعاصرة إلى هذه الفترة[7]. وبعد هذا بداية التفكير الديني لما بعد التاريخ.

ونشهد دفن الأموات في أرباخية تحت أرضيات البيوت حول القبة المستديرة. وقد عثر على مدافن جماعية، تضم عظاماً منفصلة، في تب جورا وياريم تب. وعثر على فخار قد استخدم لأغراض طقسية دينية.

أما أنماط الأدوات المكتشفة في مستويات المواقع الأخرى المشابهة لمستويات حلف ليست أقل أهمية، ونقصد بذلك التمائم (ج تميمة) ذات هيئة رأس الثور، والفؤوس المزدوجة، والبيت ذو السقف المزدوج، والمشخصات الفخارية المشوية التي تمثل حمائم أو نساء. وتختلف هذه التماثيل الصغيرة النسائية عن نظائرها في العصور السابقة. فالمرأة جالسة عادة فوق مقعد ممسكة بين يديها بثديين ضخمين. أما الرأس فلم يمثل على حقيقته بل ظهر كقطعة أو جزء من الجسم الذي صنع على هيئة مضخمة أكثر من واقعها، وزين بخطوط ونقاط تبدو وكأنها وشم لمجوهرات أو ثياب. ومن المحتمل أن هذه المشخصات، قد كانت تعويذات أو تمائم ضد العقم. أكثر منها «أمهات مقدسات أو الهات» كما يظن كان يعتقد سابقاً.

أما فخار تل حلف، فهو أفضل وأجمل فخار يصنع في بلاد الرافدين. فقد صنع باليد بكامله، من صلصال حديدي مزجج قليلاً بالشي، وحوافه رقيقة، وأشكال مختلفة وجريئة التنوع، مثل الأباريق ذات العنق الطويل الواسع؛ وجرار مكتلة وحوافٍ مشمورة. وكؤوس بقواعد مرتفعة، وأجناق للحليب، وصحون كبيرة مقرنة ومؤطرة.

أما التزيينات فهي حركات ورسومات لطيفة وحسب يتميز بها فخار السامراء، وسعى الحلفيون إلى تبنيها بالإضافة إلى أشكال نفذت بعناية فاقئة تزوغ فيها العيون كما هي الحال في رسوم السجاد العجمي. حيث تضم مجموعة ألوان من الأبيض الحليبي أو

---

(7)
J. Mellaart, Earliest Civilizations of The Near East, London, 1965, P. 97 fig 80 84 – 86.

الزهري الذي يصلح كأرضية لشكل ما، مثل الأشكال ذات الألوان الحمراء والسوداء، ثم متعددة الألوان السوداء والحمراء، والبيضاء، حيث يغطى الإبريق أو المزهرية بكامله. إن أشهر الأشكال المطبقة هي الأشكال المثلثة، والمربعة، والمرقعة، والمتصالبة، وأكاليل الزهور، والدوائر الصغيرة، وعصافير وغزلان ودبابير... إلخ. وأكثر من هذا وذاك، الفأس المزدوج أو الفأسان المتصالبان اللذان يبدوان أكثر تكراراً في الأشكال التزيينية. وكذلك «مربع مالطا» وهي مربعات ذات مثلثات في زواياها، ورؤوس الثيران النمطية وقرونها المثيرة.

من جهة أخرى فإن البيت المستدير أو القبة، يصبح تقليداً محلياً، وكذلك الفخار الرائع وتلك التعويذات التشخيصية لأجساد النساء. وهي ليست بالضرورة ذات علاقة بنظائرها من الأدوات التي ترتبط بالثقافة الرافدية التي سبقت أو لحقت بثقافة تل حلف. فقد ظهرت بالتدريج وبسرعة نحو 5500 فوق مواقع مسكونة، كما وكأنها أدخلت من قبل سكان وفودوا سلمياً إلى المنطقة الشمالية من الهلال الخصيب، واختلطوا بالسكان الذين التقوا بهم. هذا ولا ندري بالضبط من أين جاء هؤلاء الغزاة المسالمون. إلا أن الفرضية التي اقترحها ملارت Mellaart في المرجع المذكور آنفاً، هي أن ثقافة تل حلف من صنع أناس سيطروا على تجارة أحجار المرمر اللامع أي Obsidienne الذي انتشر في مواقع بدءاً من بحيرة فان (وهي أصل هذا الحجر) ثم إلى الأناضول الشرقية والوسطى، ومن هناك إلى الجنوب حيث وصل هؤلاء الجماعات إلى حوض البليخ والخابور وأرض آشور المستقبلية، وتقدموا حتى وصلوا مناطق بغداد (تل شوجامامي أما من جهة الشرق فقد وصلوا إلى القوقاز. إن المواقع المذكورة آنفاً تمثل أماكن انتشار الفخار الحلفي. ونعلم الآن أن فخار حلف قد صنع بكثرة في موقع أرباخيا، كما هو محتمل أن ذلك الفخار قد صدر إلى مناطق أخرى مجاورة، كمنتجات كمالية غالية الثمن، ووصلت حتى مناطق كيليكيا وشمال سورية، حيث قلدت أيضاً وصدرت بحراً.

من جهة أخرى فإن ثقافة حلف وصناعاتها الفخارية قد انتشرت على نطاق واسع وصل إلى بلاد الإغريق، حيث ظهر فخار ملون مشابه له في العصر الحجري الحديث هناك يدعى أورفيرنس Urfirnis، وليس من قبيل المصادفة أن تظهر الحمائم والفأسان

المتصالبان ورؤوس الثيران كرموز دينية في جزيرة كريت المينوية وفي الأناضول ما قبل الحثية وفي الوقت نفسه، وبعد نحو ثلاثة آلاف عام من صناعتها واختراعها في تل حلف.

من جهة أخرى يؤرخ فخار موقع حلف بين 5620 ± 35 و 4515 ± سنة قبل الميلاد وهي مرحلة الدخول في الثورة الزراعية الثانية لما قبل التاريخ.

**5 . ثقافة العبيد:**

حدث تبدل سكاني وهُجرت بعض مواقع بلاد الرافدين الداخلية وبخاصة حلف ونينوى، كما حرقت وسكنت من جديد مواقع مثل أرباخية وشكربز. وحل بالتدريج فخار جديد يحمل اسم العبيد محل فخار حلف الشهير. والعبيد تل صغير يقع على بضعة كيلو مترات من المدينة السومرية الشهيرة أور Ur[8]. التي تمثل رمزاً ومعنى خاصاً، حيث تدل، وللمرة الأولى، على ثقافة واحدة تمتد من أقصى الشمال إلى أقصى جنوب بلاد الرافدين، وذلك دون أن نتمكن من القول إذا كانت هذه الثقافة الجديدة قد ظهرت في أعقاب فتوح أو حروب أو نتيجة تسرب بشري سلمي جاء من الجنوب أي جنوبي بلاد الرافدين، حيث لم يعرف كمصدر لفخار أو ثقافة معينة حتى هذا العصر.

لقد جرت حفائر أثرية بريطانية عراقية بين 1946 . 1949 في منطقة أريدو وأظهرت أن العراق الأوسط، قد كان مسكوناً منذ عام /5000/ ق.م تقريباً، وأن الشمال ليس هو مصدر ثقافة العبيد. إن أريدو على عكس جارتها . لا تبعد سوى اثني عشر كيلو متراً . لم تكن مدينة كبيرة على الإطلاق، ولكن السومريين قد عدوها الأقدم «بعد الطوفان»، وجعلوا منها المقر الأرضي لأحد كبار آلهتهم وهو أنكي، سيد المياه والآلة. يبدو الموقع اليوم كمجموعة هضبات منخفضة رملية تحيط ببقايا زقورة (برج مؤلف من طوابق) حفظت بشكل سيء، وكانت قد بنيت من قبل أمارسين Amar – Sin بين (2046 . 2038 ق.م)، وهو الملك الثالث في سلالة أور الثالثة. وقد كشف الآثاريان

---

(8)

H. R. Hall et. C. L. Wolley, Al –Ubaid (UFI), London. 1927.

ستون ليود Seton Lioyd وفؤاد سفر هاهنا، عن مقبرة ما قبل تاريخية، وبناء ضخم من أدوار السلالات الباكرة، «قُدم» على أنه قصر. إلا أن الأهم، و ما اكتشف تحت إحدى زوايات الزقورة، ألا وهو تسع عشرة طبقة أو مستوى مسكون. عرف منها سبعة عشر معبداً مرصوصاً الواحد فوق الآخر! إن أعمق معبد من بينها هو المستوى (17 . 15)، وهو مصلى صغير من اللبن الفج، وصالته هي الوحيدة التي تحتوي على قاعدة، وطاولة تقدمات «مذبح!» وجرار فخارية ملونة من مستوى رفيع، مرسومة بهندسات مضغوطة، ومنفذة بدقة وعناية، وألوان بنية وأحمر غامق على أرضية دراقية (أي بلون الدراق). ويتشابه هذا الفخار الذي يحمل اسم أريدو مع نظيره «الانتقالي ما بعد السامرائي» الذي اكتشف في شوجامامي. وقد دلت الحفائر الحديثة في تل الأويلي قرب لارسا Larsa وتل أبداد Abdad في وادي الديالي، أن انتشاره قد كان أوسع مما دلت عليه المسوحات السطحية[9].

وقد قدمت معابد المستويات 14 . 12، التي لم يبق منها إلا القليل من العمارة فخاريات متنوعة، وزينت بالرسوم الهندسية داخلاً وخارجاً، بألوان مختلفة بين الأحمر الحي إلى البني الغامق، الذي يتشابه مع بعض رسومات رؤوس الثيران الحلفية. ويحمل هذا السيراميك أو الفخار اسم حجي محمد حيث اكتشف للمرة الأولى عام 1937، وهو موقع ليس ببعيد عن أوروك[10]. ومنذ هذا التاريخ. فقد عثر عليه في مواقع عدة من بلاد الرافدين الوسطى وبخاصة في رأس العمية Ras el – Amuyah قرب كيش Kish، وفي شوجامامي، وفي عربستان، وفي بعض مواقع على الجانب الغربي من الخليج العربي، ويمكن القول أنه يوجد آثار أخرى لمواقع ثقافية أريدو الباكرة وكذلك حجي محمد المؤرختين نحو (5000 . 45000). أخيراً، إن معابد المستويات 11 . 6 مصونة أكثر

---

(9)

Huot, al, Larsa et Oueili: Rapport Preliminaire, Paris, 1983: Sabah Abboud Jasim , «Excavation à tell Abdad, a Preliminary report», Iraq, 45, 1983, PP. 165 – 185.

(10)

H. Lenzen WB, 9, 1983, PP. 37 Sq; 1940, PP. 26 cq; Ziegler, Die Keramik von der Qal'a Haggi Mohammed, Berlin, 1953.

من غيرها، وأكثر اتساعاً، وتضم فخار العبيد التقليدي المتأخر، بينما أرخت المستويات الحديثة (5 . 1) من خلال فخارياتها، بالمراجل الأولى من دور أوروك في نهاية الألف الرابع ق.م.

من جهة أخرى فإن حوض الرافدين العراقي الأدنى، قد سُكن منذ النصف الأول للألف الخامسة، من قبل سكان غير محددين، ولكن يمكن القول إنهم سكان السامراء والصوان وشوجاماي القدامى. وتقدم لنا أريدو، في هذا الإطار، مثالاً مهما للاستمرارية الثقافية، حيث أننا نقبل اليوم أن فخاريات العبيد التقليدية والمتأخرة (عبيد 3 و4) المتفرعة من فخاريات حجي محمد (التي أطلق عليها اسم عبيد2)، هي بالذات متفرعة من فخاريات أريدو (عبيداً)[11]. من جهة أخرى تتوضع المعابد السبعة عشر المتتالية لأريدو، في الجزء ذاته، الذي لم يكن في الواقع، إلا كفراً أو قرية صغيرة. وأن وجود عدد من بقايا الأسماك في أحد المعابد، يفترض أن الإله الذي عُبد، ربما كان إله المياه أنكي أو إلهة أخرى!.

## 6 . جذور الثقافة السومرية:

يبدو مما تقدم، أن حضارة السومريين ذات جذور عميقة جداً في أرض العراق نفسه. وإنه لمن السهل جداً التعرف على فخار العبيد من النظرة الأولى، سواء أكان قديماً أو متأخراً، وهو أقل جاذبية من جميع فخاريات الرافدين التي سبقته. فالعجينة الصلصالية مشوية جداً، وألوانها بين السكري والأخضر الباهت، والتلوين كامد، بني معتم أو أزرق . أسود، ولا تغطي التزيينات سوى قسم من الآنية أو المزهرية . وإذا كانت رسومات النبات والحيوان والأشخاص، قد نفذت بريشة حرة سهلة، فهي ليست دون جاذبية. وتنم رتابة الرسوم الهندسية العادية (مثلثات، خطوط متشابكة ومربعات، وخطوط مكسرة ومتموجة) عن بعض نقص في التخيل. كما أن حواف الأواني رقيقة، وبدا وكأن بعض القطع قد

(11)

J. Oates. «Ur and Eridu, the Prehistory, Iraq, 22, 1960, PP. 35 – 50: M. E. L. Mallowan, CAH3, I. 1, PP. 327 – 323.

صنعت باليد أو بدوران بطئ، غير معتنى به، وهنا ظهرت المناقير أو الزلاليم والعرى والآذان للمرة الأولى. وهناك، بين الأشكال الأكثر تمييزاً، نذكر كأساً جرسياً، وجرة ذات عروة سلة «وكأس لبن» ذي منقار أو زلومة، وكوزاً مدوراً ومحدباً وقاعدته قد وضع فيها زلومة طويلة، دعي «السلحفاة». نجد هذا الفخار في جميع بلاد الرافدين، أما ما يتعلق بالعناصر الأخرى لثقافة العبيد، فهناك اختلافات مهمة بين الشمال والجنوب لنهري الفرات والدجلة.

ونعلم أن الحجارة نادرة في بلاد ما بين النهرين، قد استخدمت من أجل الأدوات الزراعية الثقيلة وبعض أعمال الزينة. وكل ما تبقى فإنه يصنع من الصلصال المشوي، من المدقات الكبيرة والصغيرة، والمناجل التي تحمل أنصالاً صوانية مثبتة بالقار، ومغزل النسيج، وقبانات شباك الصيد، وكرات المقاليع، حتى أنماط من الفؤوس والبلطات والسكاكين كما أن التماثيل الصغيرة والمشخصات قد صنعت من الصلصال، ومثلت نساء نحيفات واقفات، والوجه يحاكي رأس الحرباء. وهناك تماثيل صغيرة للرجال والحيوانات. أما البيوت فهناك أمثلة كثيرة عليها، فهي مبنية من الطوب الفج، ومساحاتها متفاوتة، وعثر على خزانات حبوب في تل الأويلين وعثر على بعض زوايات المعابد المتواضعة في جنوب العراق حول البصرة، إلا أن معابد مدينة أريدو، قد بنيت من الطوب الفج المعقود بوساطة مدقات فخارية. وعثر إلى جانب البيوت على أفران لشي التقدمات والنذور. وقد زينت الجدران من الخارج بنتوءات أو بروز متعامد لالتقاط النور وتقطيع رتابة السطوح الكبيرة الجصية، إن هذا التزيين المبتكر سيكون الطابع المميز لمعظم المعابد الرافدية. ونذكر أخيراً أن معظم المعابد قد شُيدت على مصطبة كبيرة يصعد إليها بعدة درجات.

بالمقابل فإن شمالي العراق، قد بنيت من الطوب وحسب، إلا أن الحجارة أكثر استعمالاً، ونعثر هنا على الأختام المسطحة بصورة شائعة بينما هي نادرة في الجنوب، ويحمل بعض هذه الأختام رسوماً بسيطة، ونقش على بعضها الآخر، حيوانات وكائنات بشرية، جمعت في مشاهد، توحي بأنها رقصات طقسية أو تمثل أساطير مجهولة لنا. وعثر على ثلاثة معابد في موقع تب جورا الأهم من شمال العراق، لها جدران ملونة،

وموزعة على شكل مستطيل مفتوح، حيث يشكل في المستوى 13 قمة بنائية محصنة قريبة من نظيرتها في أريدو. وتشهد بعض التماثيل والقبب من الطراز الحلفي على استمرارية التقاليد المحلية، وما هو أهم من هذا وذاك، أن طقوس الدفن تختلف اختلافاً كلياً عما هي عليه في الجنوب، ففي أريدو، دفن الأطفال مستلقين على الظهر، ممددين على كسر الفخار في مدافن مطينة ومغطاة بالطوب. وقد عثر في تب جورا على قبر واحد من هذا النوع، أما بقية القبور، فلم تكن سوى حفر كوم فيها الميت الكبير مثنياً على جانبه، أما الأطفال فقد دفنوا في مرمدة أي جبرة. يدلنا ما تقدم على أن الناس الذين أدخلوا ثقافة العبيد في الشمال كانوا أقلية. وكان الحلفيون وخلفاؤهم يشكلون الأكثرية رغم الشك بأنهم كانوا مهزومين أو خاضعين لغيرهم، بينما كان الجنوب عبيداً بكامله. وهكذا تتوسع الهوة مع ظهور حضارة وأدب متشابك في الجنوب، لن يتبناه الشمال فيما بعد. ورغم وجود هذه الاختلافات الواضحة، إلا أنها لم تؤثر على الوحدة الأساسية لثقافة العبيد، التي انتشرت في غضون ألف سنة (4500 . 3750) في أرجاء العراق وجواره، فقد عثر على فخار العبيد العادي في مدينة حلب ورأس شمرا على الساحل السوري، وعثر عليه في أكثر من أربعين موقعاً يمتد على سواحل الخليج العربي بين الكويت وقطر، ويخترق العربية السعودية حتى مناطق الهفوف على بعد أكثر من مئة كيلو متر من السواحل. وقد عاش العبيديون في بلادهم الأصلية جنوب العراق على الصيد وتربية الحيوانات والزراعة التي تستند إلى السقاية بالقنوات الصغيرة. وقد قدم الغنى الطبيعي، المتمثل بدلتا الرافدين إنتاجاً وفيراً يفوق نظيره الشمالي، فقد حصلوا على فائض من القمح والصوف والجلود وقايضوها، بما ينقصهم من الخشب والحجارة أو المواد الثمينة القادمة من جهات بعيدة. إن حقيقة وواقع هذه التجارة، قد عرف من خلال كثافة وجود حجر السبج الزجاجي الأسود في مواقع عدة من الرافدين المنخفضين، وكذلك وجود الذهب، وحجر الأمازنيت الأخضر الذي يندر وجوده إلا في الهند، وذلك في مستوى العبيد في مدينة أور كما يدل على أن التجارة مع الهند كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر.

## 7 . والخلاصة:

إن الشروط البيئية الممتازة ستجعل من جنوب الرافدين . العراق بلاداً كثيفة السكان ومؤهلة لحضارة عظيمة. ونلاحظ أن التلال المتعلقة بهذا الدور قليلة نسبياً وذلك من خلال الأسباب السطحية، فهي تتموضع على طول الفرات وفروعه. وكانت معظم هذه التلال مؤلفة من أربعة هكتارات تقريباً، ما عدا موقعين كبيرين قرب لارسا وآخر في الشمال يزيدان على عشرة هتارات ليشكلا مدينة صغيرة، وعثر على آثار العبيد في أور وأوروك ونيبور من خلال أسبار عميقة. وقد ظهرت هذه الأسباب وغيرها أن جميع المدن السومرية قد تطورت في مواقع من عصر العبيد وانطلاقاً منه. كما أن المعابد هي أفضل ما بقي من أبنية المرحلة العبيدية. ويبدو أن المدن لم تتضخم حول القصور أو القلاع بل حول المعابد والمصلى، وأن الأماكن المقدسة، كانت منذ ذلك الزمن المبكر معقل التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دون شك، كما كانت الحال عليه في القرون التاريخية الأولى لبلاد الرافدين. وتبدو لنا المخاطرة إذا قلنا أن العبيديين وخلفائهم المباشرين هم السومريون، لعدم وجود دلائل مباشرة ومقنعة، إلا أنه مما لا يقبل النقاش أن ثقافتهم قد شكلت المرحلة الأولى من الحضارة التي تنسب، من خلال دلائل مقبولة، للسومريين.

إن فجر الحضارة قد سمي كذلك لأن السومريين أخترعوا الكتابة التصويرية. ولذا يربط هذا الاختراع الذي يشكل منعطفاً في تاريخ البشرية، بسكان العراق القدماء الذين عرفوا أنفسهم كسومريين.

# الفصل الخامس
# فجر الحضارة وفجر التاريخ

## 1 . الانقلاب الكبير وانطلاق المدنية:

إن أكثر الاكتشافات المهمة في عمق ما قبل التاريخ المذكورة سابقاً، قد ظهرت في النصف الجنوبي من العراق وكان مسرحاً لتغييرات عميقة بدءاً من 3750 وهو التاريخ المحتمل لبدء دور أوروك الذي خلف نظيره العبيد. أنها تبدلات بشرية وتقانية وثقافية ستؤدي خلال سبعمائة السنة القادمة إلى قيام الإمارات السومرية والأكادية الأولى في تاريخ البشرية.

كانت نقطة انطلاق المدينة، الظاهرة الأكثر تفجرّاً وانبثاقاً في الألف الرابع قبل الميلاد، التي تعاظمت وتكاثرت بسرعة، و وضعت تحت الأنوار من خلال كشوف الآثاريين للقرى الصغيرة والكبيرة. وهكذا يلاحظ أن عدد التجمعات السكانية حول مدينة أوروك قد زاد من ثمانية عشر إلى مئة وثلاثة وثمانين خلال قرن أو قرنين، وهكذا فإن زيادة السكان قد أصبحت مضروبة بعشرة! وهناك ثلاثة عوامل وراء هذا «الانفجار السكاني» الحقيقي وهي: أولاً: تزايد عدد السكان بشكل طبيعي من جراء الاستقرار في وسط زراعي ملائم، ثانياً تحضر البدو وأنصافهم وثالثاً وأخيراً: هجرة سكان جدد، جاؤوا من الشمال على ما يبدو ليستفيدوا من الخيرات التي يمكن الحصول عليها نتيجة الزراعة المروية التي انتشرت في الجنوب. وقد استقر هؤلاء المهاجرون الجدد حول الفرات وفروعه، وتجمعت قرى صغيرة حول أخرى أكبر منها تعود لعصر العبيد، وكانت مراكز للتبادل التجاري وأماكن لممارسة طقوس العبادة التي ترتبط بازدهار عام. وعلى كل حال، ومهما كانت خصوبة دلتا الرافدين في ذلك العصر، فإن المناطق الزراعية، تبقى مرتبطة باتساع المستنقعات الكبرى، وطول القنوات التي يمكن لفلاحي التجمعات الصغيرة والوسطى حفرها انطلاقاً من النهر، وكما هي الحال في كل مرة يوجد فيها التحدي. فإن على الإنسان مواجهته، إذ يجب إطعام كل هؤلاء البشر، ولهذا يجب تحسين الوسائل

التقانية الزراعية، ووسائط النقل. وهكذا فقد اخترع الإنسان المحراث الذي حل محل الفأس، ثم عربات الجر، ثم العربات ذات أربعة الدواليب، لنقل الحبوب، واخترع المركب الشراعي الذي يمخر بسرعة من مكان لآخر. واخترع الإنسان أيضاً، دولاب الخزاف، وصنعت مواد الجميع واللصق والربط، وكان التجانس مادة مهمة في الصناعة التي بدأت في ذلك الوقت. وكلما ظهرت الحاجات ظهرت الاختراعات، وازداد تكوم الثروة والغنى، وظهرت الحاجة إلى تجارة بعيدة، والحاجة إلى مواد معدنية وحجرية جديدة، وتطور الفن العمارة أثر ذلك، وازداد الطلب على الكماليات من آنية برونزية ومرمرية حتى في أصغر القرى! وقد أدى هذا الازدهار إلى ظهور الاختصاصات لدى قسم من السكان، وبخاصة في مجال التجارة والحرف وإدارة الأعمال، وتجمعوا في مراكز كبيرة، حول نخبة مثقفة، من المشايخ والرهبان أو رجال الدين، الذين تخلوا ومنذ زمن بعيد عن كل الأعمال المملة أو المضجرة، وتحولوا إلى التفكر بالكون والابداع الفكري والأدبي. ومنذ هذا الوقت، يمكن لنا أن نشك بوجود بذور الحضارة السومرية، بإنجازاتها المعمارية، والفنية الرفيعة، وبخاصة إبداعها الكتابة، وهي «الثورة» الحقيقية الأكثر أهمية لمستقبل الإنسان.

المناخ في نهاية الألف الرابع قبل لميلاد اختلف جذرياً عما هو عليه اليوم، وإنما كان أكثر رطوبة وأمطاراً بقليل. وقد بدأ التبدل نحو التصحر والجفاف منذ ذلك الوقت. وهذا ما استدعى هجرة وانتقال السكان من أراضٍ تعتمد على المطر بشكل هجرات وكلا زادت باتجاه حوض الرافدين الأسفل ظهرت عوامل التصحر نتيجة الزراعة الكثيفة وتزايد السكان. فقد نضبت كثير من فروع الفرات التي حملت المياه إلى سرير النهر، الذي بدأ يتحول نحو الغرب، واختفى عدد من القرى، وانتقل سكانها إلى المدن التي تضخمت أكثر فأكثر. فقد كانت مساحة مدينة أور في بداية السلالات الباكرة نحو 2900 ق.م، نحو خمسين هكتاراً، ومساحة أوروك مئة، ولاجاش مئة وخمسين، وهذا يفترض وجود سكان يتراوح عددهم بين عشرة آلاف إلى خمسين ألف. ومن أجل تعويض نقص المياه في المجاري الطبيعية، فقد شقت أقنية جديدة وكبيرة، تطلب جهوداً جماعية، كما تطلب ذلك نظاماً لتوزيع المياه بصورة عادلة، وكل هذا وذلك زاد من مسؤوليات رجال الدين، الذين كانوا دائماً عمدة المدن. وهذا ما زاد من قوتهم وسلطانهم. وكان لتدني المساحات

المزروعة أن سرع وجود الفروقات بين الأغنياء والفقراء، وحث المعابد على زيادة رقعة ممتلكاتها. وأُحيطت المدن بأسوار قوية، مما يدل على وجود صراعات، سوف تتحدث عنها النصوص فيما بعد. وزاد رجال الدين من عدد القادة العسكريين، أفسحوا لهم المجال أحياناً لتسلم السلطة. وهكذا يمكن أن تكون المدن والإمارات السومرية والأكادية قد ولدت وتقوت. وظهرت معالمها كمدينة محصنة ذات أملاك محددة، وعواهل يعدون أنفسهم «نواب الله»، وكهنة متعددي الوظائف، وكتاب ونساخ، ومعماريين، وفنانين، وحرفيين، ومراقبين، ومعلمين وتجار، وعمال، وجنود، وفلاحين، فتنوعت الوظائف، وبنيت المؤسسات وتدرجت المراتب وبدأت تظهر طبقات المجتمع المتمايزة.

إن الوصف الذي قدمناه يعتمد على مجموعة معطيات متجانسة وسهلة، إلا أن الواقع ربما كان أكثر تعقيداً. كما أن وصفنا وتحليلنا يكون افتراضياً كما لاحظ القارئ، ذلك أننا لا نملك ولن نملك الوسائل التي تعرفنا بالأشياء، كما كانت وبالأحداث كما حدثت، ومما يعزينا أن الأقدمين أنفسهم لم يكونوا على دراية بالأمر، ولم يبدأوا بتسجيل آثارهم.

من جهة أخرى، لقد قسم الآثاريون القرون السبعة التي شهدت تلك الأحداث بشكل اعتباطي إلى دور سموه أورو وهو من 3750 إلى 3150 وإلى دور آخر أسموه جدت نصر (3150 . 2900)، ولهذا يجب التنبيه إلى أن الفاصل بين الدورين وهمي ولا شيء يثبت أن دور أوروك توقف، ولم يتقدم بعيداً في التاريخ وبدء الكتابة، ولنذكر غياب الفجوة بين ثقافة العبيد ونظيرتها أوروك، فلا وجود لأي تخريب أو تهديم عنيف مقصود. وقد بنيت المعابد الجديدة فوق القديمة وفق المخطط نفسه والمواد نفسها في جميع المواقع والتلال التي حفرت في أور وأوروك وأريدو ونيبور وغيرها.

كان فخار أوروك مصنوع بوساطة الدولاب، وأنتج بكميات كبيرة، وهو محرز أحياناً وغير ملون على الإطلاق، وهو أملس ناعم غالباً، ولونه الأصلي سكري وبني وأحمر. وتذكرنا بعض أشكاله بآنية العصر المعدنية، هذا الفخار الصناعي قد حل محل فخار العبيد بالتدريج. أما بالنسبة للعناصر الثقافية الجديدة الأخرى لأوروك وجمدت نصر، فقد كانت ثمن المهارة الخلاقة للحرفي والفنان المحليين. وقد استقى كثير منهم،

نماذجهم من الماضي. فنحن هنا لسنا أمام حضارة مستوردة من أية جهة، كما كان سائداً لوقت طويل، بل نحن أمام مرحلة نهائية لتطور قديم وطويل، ترجع بداياته على ما يبدو، إلى زمن تأسيس أريدو، وربما أبعد من هذا، في أعماق ما قبل التاريخ.

## 2 . ثقافة أوروك الانقلابية واختراع الكتابة التصويرية الأولى في تاريخ البشرية:

إن أطلال الوركاء هو الاسم والموقع الحديث للمدينة القديمة التي كانت تحمل اسم أوروك، والتي أعطت اسمها لهذا الدور، وهي ترتفع وسط سهل من الطمي الصحراوي، بصورة مدهشة، ليست بعيدة عن مدينة صغيرة تدعى سماوة بين بغداد والبصرة. وهي موقع أهم من جميع تلال بلاد الرافدين، سواء أكان من حيث مساحته، إذ أن طول الأسوار المحيطة به التي تبلغ عشرة كيلو متران، أم من حيث زمن سيادة ثقافته الذي يمتد من دور العبيد حتى العصر الفرتي (أسلاف الفرس) أي هو نحو خمسة آلاف عام. أو من حيث اكتشافاته الأثرية والكتابية التي أغنت التاريخ القديم وطورته.

تتألف المدينة القديمة أوروك من تجمعين سكانيين مزدوجين ومتحدين هما: كولابا Kulaba إلى الغرب، وإيانا Eanna إلى الشرق. ويضم كل من التجمعين المعبد الخاص به، فكانت كولابا تحت رعاية الإله آنو Anu رب السومريين الأعلى، وإيانا تحت رعاية الإلهة إنانا Inanna (إشتار، ربة الأكاديين وتلفظ بالعربية عشتار) «وزوجها» المعروف دموزي Dumuzi (يلفظ تموز بالعربية ولهجات أخرى) دون شك. وترتفع زقورة عظيمة وسط إيانا، بقاعدة طولها إثنان وخمسون متراً، وارتفاع لم يبق منه سوى ثمانية أمتار، وبقية أطلال. وقد بني هذا الجزء من المدينة في عهد أورنامة – Ur Nammu (2112 . 2095)، الملك الأول من سلالة أور الثالثة، ورممت عدة مرات، وتضم معبداً يقع فوق مصطبة من دور جمدت نصر، حيث نلمح الجدران وسط نفق حفره الآثاريون. وقد كشف عن سبعة معابد متراكبة فوق بعضها بعضاً تؤرخ جميعها في النصف الثاني من دور أوروك.

وقد عُمر الجميع وفق مخطط مطابق لنظيره في آريدو، ومما يلفت النظر هو مساحة المعابد إذ يبلغ أبعاد أحدها المسمى «المعبد الأبيض» 80 × 30م وقد اعتنى البناء بعمارته وتزييناتها. وقد ضم المعبد المرمز له بـ A باحة يقع في جانبها رواق مؤلف من ثمانية أعمدة من اللبن النيئ، قياس العمود منها متران و 62 سم، موزعة على صفين. وقد غطيت جدران الباحة والأعمدة برسوم هندسية بوساطة مخاريط من الصلصال المشوي بطول 7 . 8 سم، حيث لونت قاعدتها بالأحمر والأسود أو الأبيض. كانت هذه المخاريط قد غُرزت في طين صلصالي طري، ولم يظهر منها سوى القاعدة، فشكَّل ذلك الفسيفساء ذا الألوان الحية، الذي يتلألأ تحت شمس الشرق. وهناك معبد آخر قد زين بفسيفساء مشابه، ولكنه صنع من مخاريط حجرية رمادية أو زهرية. واستخدم هذا النوع من التزيين الأصلي المفرح، طوال أدوار أوروك وجمدت نصر، ومن ثم فقد هُجرْ، لأسباب غير واضحة.

من جهة أخرى عرف تذوق الألوان هذا في تلوين الجدران. ويأتي اسم أحد المعابد الباكرة في أوروك (المعبد الأحمر) من كلسه الوردي الذي يغطي جدرانه. وقد كشف ستون ليود وفؤاد سفر معبداً من دور أوروك (1940 . 1941) مزيناً برسومات جدرانية ملونة Fresques ومضيئة كما لو أنها لونت للتو. ونرى فيه موكباً من الشخصيات وفهدين جاثيين كأنهما يحرسان العرش الخالي من أي إله. ولنتذكر أن الرسم على الجدران يرجع في العراق إلى الألف السادس في أم الدباغية الرافدية.

وقد سمح سبر عميق (19,60م) وصل الأرض العذراء تحت معبد اوروك الأبيض بتحديد طبقات الموقع الأثرية. وكما هي الحال في بقية المواقع، فإن المستويات الأعمق 18 . 15 تؤرخ في دور العبيد، ويأتي ذلك بعد أربع طبقات 14 . 11، حيث تختلط فخاريات العبيد مع نظيرها من أوروك، وأخيراً، فإن الطبقات 10 ـ 4 تعود لدور أوروك بالكامل، أما المستويان الثالث والثاني، فيعودان إلى دور أطلق عليه اسم جمدت نصر، وتعود الطبقة الأولى إلى دور السلالات الباكرة. وتحتل المعابد القديمة المستويين الخامس والرابع، حيث يقسم هذا الأخير إلى ثلاثة أدوار.

هذا وتنتصب زقورة آنو في كولابا على بعد 500 متر شرق زقورة إيانا وهي أضيق من نظيرتها، ولكنها ترتفع إلى خمسة عشر متراً، ويقع في أعلى الطوابق . التي لا يمكن تمييزها، إلا بوجود الدرج . معبد أبعاده 18 ×7م، وبقي من جدرانه ثلاثة أمتار. ويؤرخ هذا «المعبد الأبيض» في دور جمدت نصر، وما يزال هيكله قائماً حيث كان الكهنة يقدمون التقدمات منذ ستين قرناً، وهو أمر لا يراه المرء إلا في أوروك. ولم تؤكد الحفائر التي جرت في الستينات، أن زقورة آنو، تغطي سلسلة من المعابد، المبنية فوق بعضها بعضاً، في دور أوروك وحسب، بل أظهرت تحت هذه المعابد زقورة، ومصليين من دور العبيد. وقد عُمرت هذه الزقورة العبيدية من الطوب الطويل الضيق المماثل لتل الصوان و«تلول الثلاثة». المؤرخين في دور سامراء الأسبق.

من جهة أخرى قَلَّ أن نجد أمثلة كثيرة على فنون العمارة في جنوب العراق، ذلك أن ثقافة أوروك لم تعرف إلا من خلال أسبار قليلة. بينما انتشرت هذه الثقافة في شمال الرافدين، حيث ترث ثقافة العبيد في معظم البلاد، وتركت لنا بعض المواقع الأثرية المهجورة وثائق غزيرة، فوق السطح تقريباً. وهكذا فإن موقع قالنج آغا قرب أربيل قد ظهر فيه شارع طويل بين حارتين كبيرتين، وعرضه ثلاثة أمتار، ويؤدي إلى ساحة كبيرة، ويقطعه عدد من الأزقة. وتضم البيوت الطينية، باحة داخلية وحجرتين أو ثلاث للمسكن، وحجرة صغيرة للمونة والمطبخ والحمام.

وظهر في القبور الواقعة تحت البيوت عقوداً صدفية وعظمية وأحجاراً متوسطة الثمن، وذهبية أحياناً، بالإضافة إلى دمى إنسانية وحيوانية. وقد كانت الجدران البيضاء لمعبد صغير مرتفع، قد زينت في أعلاها بإطار أحمر وأسود. وقد اكتشف في موقع حبوبة الكبيرة على منعطف الفرات الأكبر في سورية البيوت ذاتها ولكنها أكثر اتساعاً. وقد بلغت مساحة الموقع ثمانية عشر هكتاراً، وأحاط بالمدينة سور مستطيل تتخلله أبراج مربعة. وكانت مدينة موقع جراي ريش Grai Resh على سفح جبل سنجار محصنة أيضاً مما يوحي بأن جبهة شمال بلاد الرافدين، كانت مهددة ببعض الأعداء غير المعروفين.

كان دور أوروك فقير بالقطع الفنية، ذلك أن فن النحت لم يظهر بعد، وقلماً استخدم المعدن إلا لغايات عملية (أوانٍ، أطباق، فؤوس، رؤوس سهام برونزية). ولكن فن النقش glyptique قدم أشياء جديدة عدت أعمالاً فنية. وقد بدل الختم المسطح بآخر أسطواني. ولم يتمكن الفنان أو الكاتب من تطوير الختم إلى آلة طباعية يدويه. حيث يجبأن ننتظر حتى القرن الثامن عشر من عصرنا، حتى يدرك الإنسان أهمية الطباعة. وقد صنع الختم من حجارة عادية أو شبه كريمة (لازورد، عقيق) وطوله من اثنين إلى ثمانية سنتمترات ثخين كالإبهام أو رفيع كالقلم ومثقوب بطوله كي يحمل معلقاً بالعنق. وقد نُقش سطحه برسم يمكن طباعته بتدويره، إلى ما لا نهاية، فوق عجينة مسطحة من الصلصال. وكانت تقليعات «موضات» الرسوم مؤلفة من حاملي التقدمات والأضاحي، والأسرى وحيوانات في وضع الهجوم وبخاصة الأسود، وكل هذا، يشهد على إحساس شديد بالأشياء وملاحظتها بدقة. وقد مثل الأشخاص العاديين عراةً، بينما لبس العسكريون القادة جبة طويلة، وربوا ذقونهم طويلاً، وصارت بشكل دائري، وعقدت شعورهم خلف النقرة. لا شك بأن هذا الفن يبدو صغيراً، إلا أنه ذو أهمية بالغة، حيث ينقل لنا معلومات عن الحياة اليومية والعقائد الاجتماعية.

### 3 . اختراع الكتابة التصويرية:

وهكذا لم يشهد أي عصر من عصورنا . إن لم يكن القرنين التاسع عشر والعشرين ـ مثلما شهده عصر اوروك من اختراعات تقانية. ولكن هذه الاختراعات الأساسية ألا وهي الدولاب والشراع والمحراث، والإنتاج المكثف للأدوات المعدنية وغيرها، تتضاءل أمام اختراع الكتابة، ففي تلك المعابد الباكرة من الطبقة الرابعة . ب من حارة إيانا في أوروك، ظهرت أقدم النصوص في العالم تحت اسم الألواح أو الرُقم الطينية «التصويرية» Pictographique.

لقد اخترعت الكتابة، على أغلب الظن، من قبل السومريين واستعملت بعدهم من قبل الآكاديين والبابليين والآشوريين خلال جميع العصور القديمة. واستعارها منهم جميع الشعوب المجاورة في إبلا . سورية، والكنعانيون والحيثيون والحوريون والعيلاميون والفرس،

مستخدمين الطين كسطح للكتابة والقصب كأداة له، وهما مادتان متوافرتان في حوض الفرات.

أما طريقة الصنع فقد كانت سهلة للغاية، فما على الكاتب أو الناسخ إلا أن يغرف حفنة من طين الصلصال النهري، ويصنع بيده رقائق، أو ورقاً طينياً بالحجم والسماكة المناسبتين، ويعمد إلى الرسم على سطحها بوساطة قلم من القصب مدبب الرأس على شكل مثلث، إن هذا الرسم ليس إلا إشارات خاصة تعبر عن اللغة التي ينطق بها الكاتب. هذا اللوح أو الرقم، سواء أشويت أم تركت لتجف في الشمس فقد أصبحت جاهزة للاستعمال والتخزين وتدعى بالسومرية دوب DUB وهي مقاومة لعوامل الطبيعة أكثر من الحجر. يضاف إلى ذلك، أن هذا الكتابة الرسمية أو التصويرية قد نقشت على الحجر أيضاً، ولكن بشكل محدود ولأغراض التأسيس والذكرى. كما نقشت على بقية المواد كالبرونز والعاج والخشب والعظام.

ونقش على معظم الرقم الباكرة إشارات على شكل دائرة صغيرة أو نصف دائرة أو ضغطة عقب القلب المدورة، وهي الأرقام المستعملة آنذاك، أما الرسوم فيمكن معرفتها بسهولة وفهم معناها وهي غالباً أجزاء من جسم الإنسان، ورؤوس حيوانات، وآنية، ومراكب، وهناك بعض الرسوم الغامضة، التي لا تفهم إلا من قبل المختص. وقد نظمت الأرقام والرسوم في إطار مستطيل، وبما أن الطين غير سهل للكتابة المحنية والملتوية، فقد استخدم الرسام أو الكاتب الزوايا القائمة، والممسوحة، ورسمت المثلثات بالاستعانة بالطرف الأبري من القلم، ونظمت الإشارات بصورة عمودية، وصارت تصغر شيئاً فشيئاً وتتحول عن شكلها الأصلي. لقد ولدت هذه الكتابة اعتباراً من بداية الألف الثالث قبل الميلاد وصارت تستخدم على نطاق واسع. ودعاها مكتشفوها الأوروبيون في منتصف القرن التاسع عشر بالـ Cuneiform (من اللاتينية Cuneus، Coin زاوية، و Clou مسمار) أي الكتابة المسمارية أو الاسفينية، لأن لها هذا الشكل. وطرأ عليها تطورات مهمة، أولها ترتيب الإشارات من اليسار إلى اليمين وإلى الأسفل. وظلت تكتب هكذا طوال ثلاثة آلاف عام، أي حتى اندثار استعمالها خلال القرن الأول من عصرنا في بعض المعابد.

أما السؤال المهم فهو هل كتب أو هل رسمت بالأصح، الألواح الطينية الباكرة باللغة السومرية؟

هذا ما لا يمكن تأكيده مئة بالمئة، ولكنه محتمل ذلك أن الكلمة ليست إلا رمزاً Logogramme، ولا توجد إشارات وصل أخرى بينها، لها قيم صوتية وحسب. ذلك أن السومرية كلغة تدعى لاصقة agglutinante، قد ستخدمت جميع الإشارات بقيم تصويرية تقريباً وبعضها كلاحقة إعرابية. فنحن لا نستطيع معرفة إذا كانت العبارة أو الرسم (12 ورأس بقرة) هو باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنكليزية إلا إذا وضعت في جملة كقولنا: أخذ اثني عشر بقرة il a recu 12 boeufs , hi received 12 oxen إلخ... يضاف إلى هذا أن نظام الكتابة السومري ومن بعده الآكادي معقد ومركب، إذ يمكن قراءة الإشارة الواحدة على وجوه مختلفة فالإشارة دو Du تمثل القدم ولكن يمكن أن تُقرأ وتعنى القدم أو المشي أو ذهب، مشى «جنِ gin» أو وقف «جوب gub» أو حمل «توم tum». وهذه المقاطع متعددة الأصوات. وبعكس هذا، يمكن للحرف المصوت أو المقطع أن يكتب بطرائق مختلفة، وتمثل كل إشارة إسماً أو فعلاً خاصاً، وهكذا فإن كلمات مثل وضع، أسس، أكل، نظف، طهر، قطع قد مثلت بإشارات غير متشابهة على الإطلاق، ولكنها تلفظ جميعاً كو «Ku» ولكي تفرق بينها تضع لكل منها إشارة فنقول:

$Ku, Ku, Kú, Kù, Ku_4$ إلخ. وهو مبدأ تشابه بالإشارات الصوتية المسمارية. وقد بلغ عدد الإشارات المختلفة للصوت آ a تسع، وثماني عشرة للمقطع تو Tu وثلاث وعشرين للمقطع دو du.

لقد ظهر النقش على الرقم الأكثر قدماً بشكل واضح ومتطور مما دفع بعض المؤرخين للاعتقاد أن أوائل النصوص التصويرية قد نقشت أو رسمت على مواد قابلة للاهتراء مثل الخشب، والأوراق والجلود، وأنها اختفت إلى الأبد.

ولكن الحقيقة أن معظم النصوص أو الرقم الباكرة ذات صفة اقتصادية أو إدارية بحيث يصعب ترميزها. كما لا يمكن القبول بسهولة أن الكتابة المبكرة، في أعماق ما قبل التاريخ، قد بدأ على شكل كرات فخارية أو مكعبات وهي ما قد عثر عليه في كثير من

المواقع في إيران والعراق منذ الألف السابع من (جرمو) حتى أوروك. ولكن ما من شك أنها استخدمت في نظام خاص للعد والإحصاء، وكأن الحصى وصلته بكلمة إحصاء دليل على أن الاستخدام القديم للحصى في حساب وتسجيل الممتلكات الشخصية أو الدينية. هذا ونجد مثل هذه الحصيات والقطع الطينية منذ 3500 في سوزا مغلقة في كرات فخارية تحمل على سطحها الخارجي أشكالاً متطابقة. إلا أن الكتابة سرعان ما ستتجاوز هذه الوظيفة البسيطة كمساعد لحفظ أعداد الأشياء. وستصبح مستخدمة في جميع المجالات بعد قرون من اختراعها، وستكون أداة أدب وتعبير لم يسبق له نظير وما يزال مدعاة إعجاب وفخر للعراقيين والبشرية جمعاء.

## 4 . ثقافة جمدت نصر أو الأعمال الفنية الأولى في تاريخ البشرية:

### آ . الفخار:

بينما كان الآثاريون الإنجليز والأمريكان ينقبون في موقع مدينة كيش عام 1925 فقد اكتشفوا فوق الموقع المجاور الذي يحمل اسم جمدت نصر فخاراً ملوناً بلون واحد أسود أو أحمر بنفسجي، أو متعدد الألوان مزخرفاً برسوم هندسية أو طبيعية. وقد عثر فيما بعد على نظير له في وسط بلاد الرافدين، فكان هذا كافيا للحديث عن دور جديد هو دور جمدت نصر، ولم يكن هذا الدور قصيراً وحسب نحو (3150 . 2900)، بل لم يكن هناك فرق أساسي بين عوامله الثقافية ومثيلاتها في دور أوروك، إن لم يكن هناك بعض التنوع في الأسلوب والنوعية.

### ب . المعابد:

كانت المعابد تتألف من ثلاثة أقسام أيضاً، (جناح طويل وحجرات موزعة على الجانبين)، إلا أن المصطبة بدت أكثر اتساعاً وعلواً. وبدل أن يغطى سطح الجدار بالكامل، فقد نُفذت الزخارف الفسيفسائية على شكل مأطورات يصل بينها صف من الطوب. وكانت الأختام الاسطوانية أكبر حجماً وأكثر بساطة، وخطوطها تجريدية تقريباً. أما بالنسبة للفخار فهو يتفرع من نظيره في أوروك من حيث الشكل ولم يكن سوى نموذج عابر، إلا أن الإبداع الوحيد والمهم في هذا العصر هو النحت وما شهده من اتقان.

**ح . النحت:**

لقد أهمل النحت منذ عصر السامراء تقريباً، ولكنه عاد وظهر فن نحت الحجر فجأة وبصورة بدت الأعمال النحتية عاصفة وسرسامية وسعره[12]، وقد نفذ هذا النحت على الجرار، والأواني، والأقداح، والصفائح الجدارية، ومناهل المياه، والأوزان والمرازي أو القرة، والأختام المسطحة إلخ. وإذا لم يكن هذا الفن قد استمد من فن النقش على الحجر من العصور السالفة إلا أنه استوحى مباشرة من المحيط الذي يعتز به النحات عادة مثل: نقش ونحت الأختام الاسطوانية، والأكباش في الرعي، والثيران الهاجمة على الثيران ومطاردة الخنازير والنعاج، وأبطال ينخون الدواب المتوحشة، ومؤمنون يحملون القرابين لآلهتهم. وإذا كانت جميع الأعمال النحتية لهذا الزمن، ترقى إلى مستوى رفيع، إلا أن قطعتين نحتيتين فريدتي الوصف، من مدينة أوروك، ترقيان إلى مستوى الروائع. الأولى: كأس الوركاء . أوروك المرمري، الذي يبلغ ارتفاعه متراً تقريباً، ويقسم النحت فيه إلى ثلاثة سجلات منضدة، حيث نرى إلهة بارزة (غالباً هي إنانا Inanna) يقدم لها مجموعة رجال عراة، بطقس احتفالي، عدداً من التقدمات. ويبدو شخصية ذكرية مهمة بلباس ثمين (ربما كان إلهاً أو أميراً أو كاهناً) يواجه الربة، ولكن للأسف فإن هذا الجزء مهشم جداً. وقد عد هذا الكأس دائماً قطعة أثرية فنية، ذلك أنه قد تعرض للكسر في العصور القديمة، إلا أنه قد أصلح ورمم بوساطة أبازيم أو عقارب معدنية. أما القطعة الثانية الرائعة فهي: قناع امرأة محفور من المرمر، وبحجم طبيعي، ربما كان مثبتاً فوق تمثال خشبي قديماً. وقد فقد هذا الوجه الرائق، الشامخ قليلاً، عينيه اللتين يجب أن تكونا مصنوعتين من اللؤلؤ أو الصدف أو السوسن كما فقد حاجبيه وجُمته (أي شعره المستعار) وحلق أذنيه. وهو منحوت بكثير من الواقعية والحسية مما يذكرنا بأعمال نحت العصر الكلاسيكي (التقليدي) الإغريقي لا بل يفوقه إحساساً. كما أن حجمه وجماله وحليه الثمينة التي يمكن تخيلها، تدفعنا إلى الاعتقاد أن هذا الوجه القناعي الجميل قد صنع للربة المحبوبة أنانا أو أنه هو هي بالذات.

---

(12) سعر، سرسام: جنون.

**والخلاصة:**

إن هذا التطور التقاني، والعمارة الجميلة والنحت الرائع والكتابة التي هي دليل الحضارة، نعتبره اليوم حضارتنا الأولى وحضارة الإنسانية جمعاء وتحمل اسم الحضارة السومرية العراقية القديمة، ذلك أنه من المؤكد أن الألواح الفخارية الكتابية التي ظهرت في جمدت نصر والمستوى المقابل له في أور وتل عقير قد كتب جميعها باللغة السومرية.

**4 . انتشار الحضارة السومرية:**

هذه الحضارة السومرية، قد ولدت في جنوب العراق بين 3500 . 3000، وقد انتشرت خلال الألف الثالث قبل الميلاد، إلى وادي الديالي، وعلى طول الفرات فوصلت إلى ماري وإلى سورية الشمالية إلى مدينة إبلا، ثم اتجهت نحو الدجلة إلى آشور ونجد لها تنوعات واختلافات في كل مكان. وقد ظهرت منذ دور جمدت نصر جوار بلاد الرافدين، وذهبت بعيداً بتأثيراتها المتنوعة التي تركت ما يدل عليها من أدوات يحملها التجار أو المهاجرون. وهكذا فقد عثرنا على أختام اسطوانية سومرية في سوزا في إيران وكذلك في تب سيالك وتب حصار ليس بعيداً عن بحر قزوين. وظهر إلى الجنوب الغربي . فيما سيعرف ببلاد عيلام فيما . فن نقش ونحت حجرتين مستوحيتين حتماً من العراق (وأكثر خشونة)، وكان لهذا النقش لغته الخاصة . العيلامية . وبالتالي رقمه وألواحه عرفت باسم «ما قبل العيلامي»، Proto – elamite، وهي ما ستختفي دون أن تمكننا من معرفة سرها. من جهة أخرى، فقد عثر على أجزاء من أختام اسطوانية من نمط جمدت نصر في تركيا (علي صار روادة Alisar – Troie). وثمة من اعتقد بأننا عثرنا على أثر الكتابة السومرية الباكرة في تلك الألواح أو الرقم الغامضة المكتشفة في ترتاريا Tartaria في رومانية عام 1965. وقد عثر على مثل هذه الأختام المطبوعة على الطين الفخاري أقصى جنوب شرق الجزيرة العربية، حيث اكتشفت مقبرة تضم فخاريات تقليدية من دور جمدت نصر. وما نزال تعثر على تلك الأختام في هذه المواقع وغيرها.

## 5 . علاقة مع مصر!

هذا ولا نعلم إذا كانت حضارة سومر الباكرة قد انتقل تأثيرها إلى مصر في دور ما قبل السلالات عن طريق البحر أو البر؟ إلا أن دلائل الاتصال بين الحضارتين واضحة وعديدة مثل الرسوم الرافدية على المخروط العاجي لسكين شهيرة لجبل العرق (شخصية ملتحية تقف بين أسدين)، وعلى لوحة نعرمر Narmer وهي ليست أقل شهيرة من سابقها، وتضم رسومها حيوانات خرافية ذات رقاب طويلة متشابكة، ومن الأمثلة الأخرى عدد من الأختام الاسطوانية من نمط جمد نصر تماماً عثر عليها في نقادة في مصر العليا وكذلك مجموعة من الأدوات المتقاربة التي صنعت محلياً واستعملت كتمائم وتعويذات لزمن طويل. وقد أراد بعض دارسي المقارنات الحضارية بين مصر والشام والعراق القديمة، أن يكون الحيد أو سنون التعشيق في جدار أقدم القبور المصرية (المصطبة) استعارة هندسية من أوروك، إلا أن هذا الأمر يحتاج إلى نقاش وبراهين أكيدة. أما بالنسبة لتأثير الكتابة السومرية في الكتابة المصرية السحرية Hieroglyph وقدمها نحو قرن أو قرنين من الزمن، فيبدو أن هذا التأثير قد اقتصر على «استلهام» وانتقال بعض مبادئ الكتابة ليس إلا. إن معظم التأثيرات التي سبق الحديث عنها أعلاه، هي من جانب وحيد أي السومري، إذ لم يعثر على أي أداة مصرية من ذلك العصر في بلاد الرافدين، ولهذا تعزى تلك الاتصالات المتواضعة إلى مجموعات سومرية صغيرة مهرة أقامت على ضفاف النيل، ولم يكن لها تأثير مستمر، وإنما تستحق الذكر. ذلك أن الاتصالات والاحتكاك بين هذين المركزين الحضاريين العالميين العراق ومصر قد كان نادراً وعرضياً خلال المراحل المبكرة من فجر التاريخ.

## 6 . تباين بين الشمال والجنوب:

ومن المدهش أيضاً أن نلاحظ أن الحضارة السومرية في بلاد الرافدين قد بقيت محصورة في النصف الجنوبي منها، بينما نجد آثار ثقافة أوروك في معظم مناطق الشمال تقريباً، أما مرحلتها الأخيرة أي جمدت نصر فإنها تقتصر على عدد صغير من

المواقع المعتبرة على أنها مستقرات سومرية. والمثال التقليدي على ذلك هو تل براك، في حوض الخابور، حيث تم الكشف عن معبد فوق مصطبة مرتفعة ذات جدران مزخرفة بالفسيفساء على شكل مخاريط ووريدات ملونة وملبسة بأوراق نحاسية، كما كان أساسه يخفي عدداً من الأصنام الجصية على شكل جرس وقد غرس فيه زوج أو عدة أزواج من العيون. بينما لم يقدم تل براك سوى فخاريات أوروك، ذلك أن فخاريات جمدت نصر الملونة وكذلك الألواح المكتوبة، لم تتجاوز وادي الديالي. أن هذا التباين بين الشمال والجنوب سيكون أكثر وضوحاً في شمال شرق العراق، في آشور المستقبل. وقد استمر سكان تب جورا بصناعة فخارياتهم يدوياً أو على الدولاب، وباستعمال البرونز بتقتير، واستخدام الأختام المسطحة، والاستمرار في جهل الكتابة، خلال دور أوروك وجمدت نصر. ولن يجعلنا هذا ننعتهم بالمتخلفين ذلك أن معابدهم وأروقتها المعمدة كانت رشيقة وأنيقة، ومبنية بعناية، كما أن قبورهم ذات الأشكال البيتية قد قدمت حلياً من الذهب وحجارة شبه كريمة وعاجاً، مما يدل على ازدهار كبير، وعلاقات تجارية واسعة. وستحل ثقافة جورا محل الثقافة المدعوة نينوي 5 «Ninive 5» المتميزة بفخار جميل مصنوع على الدولاب، وملون ومحزز وذلك نحو بداية الألف الثالثة قبل الميلاد. كما نعثر في الشمال على أسلحة برونزية بكثرة، وعلى أختام أسطوانية سومرية. ولكن دور السلالات الباكرة (2900 . 2334) سينهار بالكامل قبل ظهور أوائل الوثائق المكتوبة التي أدخلها الأكاديون الفاتحون لتلك المناطق. فما الذي أخَّر دخول الثقافة السومرية كل هذا الزمن في شمال شرقي العراق؟ هل هو غزو خارجي متخلف ظهرت بعض آثاره في تب جورا من حريق ومذابح في نهاية دور العبيد؟ أم هم المحافظون التقليديون من السكان الذين أشرنا إليهم أعلاه؟ أم هي تنظيمات اقتصادية واجتماعية أقل تعقيداً مما هو في الجنوب، وتستغني عن الكتابة؟ أو أن السبب هو مجموعة تلك الأسباب ؟ الواقع أن حفائر وتنقيبات مواقع الألف الرابع في منطقة الشمال هي قليلة ولعل المستقبل سيساهم في الكشف عن هذا اللغز، أو فهم أفضل لهذه المشكلة. إلا أن الهوة التي توسعت بين الجنوب والشمال في فجر العصور التاريخية لن تضيق كثيراً فيما يلي من العصور.

وستظهر كل من آشور وبابل كقوتين متنافستين متميزتين. وعندما سيتعلم ملوك آشور الأقوياء اللغة السومرية، وسيجمعون بكل تقوى وورع نصوص سومر وأكاد مما سيفيض بصنيع معابد أور وبابل، أليس هذا اعتراف ضمني بتفوق ثقافة سكان الجنوب وبالدين الذي كان عليهم تجاه حضارة أقدم من حضارتهم؟!

**المشكلة السومرية وأصل السومريين:**

**1 . الأسئلة والشك:**

من كان أولئك السكان الذين عرفوا للمرة الأولى من خلال وثائقهم بالسومريين؟ هل هم سكان قدماء، أقدم من سكان ما بعد التاريخ والحضارة في بلاد الرافدين؟ أم أنهم جاؤوا إلى المنطقة من جهات مجاورة؟ معروفة؟ أم غير معروفة؟ لقد نوقشت هذه المسألة منذ عام 1869 عندما اقترح المؤرخ الفرنسي جول أوبرت Jules OPpert إطلاق تسمية السومرية للغة بعض الكتابات الرافدية التي لم تكن كتابات آشورية أو بابلية، وكان ذلك قبل ثمان سنوات من اكتشاف ارنست سارزك Ernest Sazec الحضارة السومرية بالمعنى الصحيح في موقع تلو (جرسو) Gersu. ومماييدو حتى الآن أن المشكلة لم تحل ولن تحل؟ ذلك أن الاكتشافات الحديثة في السنوات الأخيرة لم تقدم أية دلائل جديدة لحل المعضلة، إن لم تزدها تعقيداً، إلا أنها وسعت دائرة النقاش القديم الذي يدور منذ مئة وخمسين عاماً، وأضافت حججاً وبراهين جديدة تستحق البحث والاستعراض.

**2 . الحقائق والوقائع:**

إن الصفة سومري وسومرية مستقاة من اسم الجزء المتوسط الأدنى من جنوب العراق الذي يدعى: سومر أو بالأصح شومر Shumer التي تكتب في النصوص السومرية المسمارية (كي) أن. جي) Kl. EN.GI [13] وينطق كنجير Kengir الذي لم

(13) يمكن أن نضطلع على جميع الدراسات والنتائج المتعلقة بهذا الموضوع في:
T. Jones, The sumerian Problem, New York, 1969.

يعرف معناه حتى الآن. كان يعيش ثلاث مجموعات عرقية باحتكاك شديد وصداقة جيدة في تلك المنطقة وفي بداية العصور التاريخية. وهم السومريون الذين هيمنوا في أقصى الجنوب حول نيبور، حتى شواطئ الخليج العربي، والمجموعة الثانية هم الأكاديون الذين تكاثروا ما بين نيبور وبغداد فيما يعرف ببلاد أكاد وثالث المجموعات وآخرها أقلية صغيرة غير معروفة الاسم وليست ذات أهمية يشار لها بالرمز (س). ويؤكد معظم الباحثين المؤرخين أنه لا يوجد اختلاف سياسي أو ثقافي بين هذه المجموعات من السكان وإنما هناك اختلاف لغوي واحد فقط.

وقد تقاسمت هذه المجموعات الثلاث المؤسسات الثقافية والاقتصادية الواحدة وكذلك عقائد واحدة وأنماط العيش والتقانات والفن والتقاليد. باختصار يمكن القول إنهم تقاسموا بناء ما نسميه الحضارة السومرية. إلا أن الدليل الوحيد الذي يسمح لنا بتمييز مجموعة عن أخرى هو اللغة التي لا تكشف عن شيء سوى من خلال الكتابات وأسماء العلم. أما ما يتعلق بالمجموعة التي رمز لها بإشارة (س) فلا أثر كتابياً لها، وإن ما طرح إمكان وجودهم أن النصوص السومرية قد احتوت تعابير وأسماء ليست سومرية ولا أكادية مثلا: ذلك أسماء ومدن وأنهار مثل الفرات أبو بوران buranu - m والدجلة إدجله Idigla وعدد من المهن والأشياء.

من جهة أخرى، تشرح هذه الاعتبارات المحاولات السابقة التي رأت وجود اختلافات بين السومريين والأكاديين من خلال وجود أو عدم وجود لحية أو جبة صوفية في تمثال أو آخر. وقد ثبت بطلان هذا الادعاء من خلال جميع التماثيل والمنحوتات التي أخرجتها الحفائر الأثرية. ونشير في هذا السياق إلى عدم وجود «عرق» سومري بالمعنى العلمي للأجناس البشرية، إذ أن جماجمهم التي عثر عليها في قبورهم هي من خليط يعرف بالمتوسطي.

وهو الجنس المعروف في مناطق البحر الأبيض المتوسط منذ دهور بعيدة جداً. أما ملامح الوجه كما عكسها الرسام أو النحات فهي اتفاقية ورمزية لا قيمة لها في

F. R. Kraus, sumer und Akkad, Amesterdam, 1970 P. 48 – 51.

التفريق الجنسي. فالأنف الطويل والثخين، والعيون الكبيرة والنقرة المسطحة قد عد لوقت طويل مزية سومرية، إلا أنه عُثر على تماثيل لأشخاص يحملون أسماء أكادية في موقع ماري الذي كان مأهولاً بالأكاديين وأسلافهم، بينما نجد أن تمثالاً متأخراً للحاكم جوديا Gudea السومري لمدينة سومرية جداً هي جرسو Girsu له أنف قصير ومستقيم وجمجمة مسطحة تشبه عواهل آكاد.

**. هل اللغة تدل على الأصل؟**

عندما نريد تحديد أصل شعب ما، فإن اللغة تشكل عامل دلالة عرقياً. وهكذا فإن الأكاديين والآراميين والعرب يتكلمون لغات من أرومة واحدة أقدمها الأكادية في الأصل. كما أن الإيرانيين والإغريق والحثيين والأريين الهنود، يقطنون مناطق جغرافية متباعدة إلا أنهم يتكلمون لغات متقاربة سميت هندو . أوروبية وتنسب إلى منشأ قديم يقع جنوب شرق أوروبا غالباً. إلا أن اللغة السومرية لم تستجب لأي من المجموعتين في إطار دراستها ومقارنتها. فاعتبارها لغة «لاصقة» فقد تكون ناتجة عن مجموعة لهجات قديمة اختفت من العالم إلى الأبد. وتوزعت في جميع أنحاء العالم اليوم. وهي اليوم لا تشبه أية لغة ميتة أو حية من حيث النطق على الأقل. وقد كشف الأدب السومري الذي وصل إلينا عن شعب ذكي مجبول على المناظرات والأمثلة الكلامية ولا تنقصه روح الدعابة والفكاهة، ضمن إطار واقعي تارة ودين تارة أخرى. إلا أنه لم يترك لنا أي دليل مادي أو كتابي عن نشأته الأولى. أخيراً، إن اللوحة الخلفية للأساطير والملاحم السومرية هي مشاهد طبيعية للمستنقعات والقصب وطرفة المن والنخيل، هو المشهد التقليدي في جنوبي العراق . كما لو أن السومريين لم يعشوا خارج هذا الإطار الطبيعي على الإطلاق، كما لا يوجد أي شيء في النصوص يذكر جزءاً من أسلاف رافديين بعيدين. ولذا فنحن مجبرون على اللجوء إلى علم الآثار، وأن نتساءل أي من المجموعات العرقية المختلفة، يفترض أنها عصب ثقافات ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين؟ هل يمكن مثلاً إطلاق صفة سومريين على سكان المرحلة التاريخية التالية؟ هكذا يمكن أن يطرح السؤال، ولكن

الجواب لا يمكن معرفته ذلك أن اللغات المحكية غير معروفة آنذاك أي قبل دور جمدت نصر. وإن جميع الأجوبة التي يمكن تقديمها هي قائمة على افتراضات وحدس ومقارنات فيها كثيراً وقليل من المغامرة. وقد انقسم العلماء الذين تحدثوا عن هذا الموضوع إلى قسمين رئيسيين: يعتقد بعضهم أن السومريين قد دخلوا إلى بلاد الرافدين أثناء دور أوروك، ولكن هذا لا يعني أن اللغة السومرية لم تكن محكية قبل ذلك. ويعتقد بعضهم، أنهم كانوا موجودين منذ دور العبيد. ونحن نميل إلى الافتراض الثاني لأنه أكثر احتمالاً. ومن المؤكد أن الكتابة السومرية قد ظهرت في نهاية دور أوروك، ولكن هذا لا يعني أن اللغة السومرية لم تكن محكية قبل ذلك! من جهة أخرى، إذا قبلنا فرضية وجود شعب المجموعة «س» من خلال وجود بعض الأسماء المنسوبة إليه فإن هذا دليل قدمه في بلاد الرافدين. ولكن الرقعة الجغرافية بين الدجلة والفرات واسعة، بحيث يمكن أن يعيش فوقها عدد من الشعوب المختلفة. لقد كان المرور من فخاريات العبيد الملونة إلى فخاريات أوروك العارية قد ذكر على أنه إشارة تبدل في التركيب السكاني، ولكننا نعلم الآن أن هذا التبدل قد تم بشكل بطئ جداً، ويرتبط غالباً بتجديد تقاني. وبالمقابل، فإن الواقع الذي يشير إلى أن المعابد قد بنيت فوق بعضها بعضاً منذ دور العبيد إلى جمدت نصر وإلى أريدو وأوروك، وفق مخطط متطابق. كذلك بعد غياب أي فجوة ثقافية خلال كل العصور والأدوار الطويلة دلائل على استمرارية ملحوظة تبدو لنا مشكلة لبراهين قوية لصالح الفرضيات التي تعتبر أن السومريين موجودون في أسفل بلاد الرافدين منذ أن كانت هذه البلاد قابلة للسكن.

من جهة أخرى، إذا كان السومريون غزاة وفاتحون فمن أين جاؤوا؟ لقد بحث بعضهم عن تلك الأصول في الجبال الواقعة شرق الرافدين وجنوبها، حيث يظن أنهم أتوا من جهتي الجبال أو البحر! وظن آخرون أنهم جاؤوا من الأناضول ونزلوا حوض الفرات حتى أسفله! إلا أن البراهين والحجج المقدمة لدعم هاتين الفرضيتين غير مقنعة. ذلك أن عدداً كبيراً من الحفائر قد جرى في تلك المواضع المقترحة أي في تركيا وإيران

وبلوخستان وأفغانستان وآسية الوسطى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ولم تقدم أي شبه قريب أو بعيد من ثقافات أوروك أو جمدت نصر، ولم يعثر بالطبع على أي نص سومري مبكر وهو ما يمكن عده البرهان الوحيد والقاطع.

**والنتيجة:**

طالما أن البراهين والشروط غير كافية، فلماذا لا نبقى في بلاد الرافدين نفسها، ولماذا يحاول بعضهم الذهاب بعيداً عنها؟ لقد رأينا في الفصول السابقة أن كثيراً من العوامل المادية للحضارة السومرية مثل الطوب المجفف والجدران الملونة المزخرفة بالفسيفساء، والأواني والأصنام الحجرية والدمى الفخارية والأختام وأشغال المعادن، قد ظهرت منذ الألف السابع والخامس في شمال العراق، وأن حفائر شوجامامي قد وطدت الصلة بن ثقافة سامراء، وتلك التي عاصرتها في أريدو حجي محمد (العبيد 221). إننا نذهب بعيداً عند مقارنة سكان ثقافة السامراء مع السومريين أو حتى مع العبيديين على أساس هش هو الفخار وبعض التماثيل الصغيرة الفذة من تل الصوان، ولكن يبدو أن أوائل سكان جنوب الرافدين قد نسبوا إلى جيرانهم وسط حوض الدجلة، أو أنهم تأثروا بهم على الأقل. كما أن ثقافة السامرائيين أنفسهم، تتعلق بسكان الأدوار الحجرية الحديثة في شمال العراق وكردستان وأعالي الدجلة علماً بأنه لا يوجد ما هو حسي يدعم هذه الفرضية.

وهكذا كلما توغلنا في الزمن، فإن المشكلة تصغر وتتلاشى أخيراً في ظلمات ما قبل التاريخ، ذلك أننا لا نعلم شيئاً تقريباً عن تحركات الشعوب في العصور الحجرية

القديمة والحديثة. وقد حاول بعض العلماء التساؤل عما إذا لم تكن «مشكلة السومريين» مفتعلة ومغلوطة[14]•!.

بعد كل ما تقدم يمكن القول أن السومريين كانوا خليطاً من السكان في عالم يشبه عالمنا المختلط المتنوع أيضاً، كما أن حضارتهم كحضارتنا اليوم قد ضمت عناصر أجنبية وأهلية، وتنسب لغتهم إلى مجموعة لغوية واسعة الانتشار لم يكن ليبقى منها دليل في مكان محدد في الرافدين أو ما جاورهما، كما يمكن أن يكونوا من أحد الشعوب المختلطة وعاشوا في مناطق واسعة من الشرق منذ العصور الحجرية العليا والحديثة، وبعبارة أخرى فمن الممكن أن السومريين قد عاشوا دائماً في العراق دون أن نتمكن من قول مزيد على ذلك. كما قال هنري فرانكفورت أحد أفضل المتخصصين في تاريخ الشرق القديم: «إن المشكلة التي نوقشت مطولاً حول أصل السومريين يمكن ألا تكون في نتيجة الأمر سوى مطاردة سمكة خرافية». (رو ص85).

كما يمكن القول ليس كل من تكلم الإنكليزية هو أمريكي في أمريكا، إنها عالم آخر ناطق بالإنجليزية[(15)].

---

• حاول كثيرون من شعوب الجوار نسبة السومريين إليهم مقدمين حججاً وبراهين واهية غير علمية. بعضها يستند إلى مقاربات لغوية صدفية. ولجأ بعضهم إلى تدوين مادة في دستورهم أن أصولهم سومريون، كما في دستور، كمال أتانورك.

(15) المهم أن رقي هذه الحضارة يدفع بالجميع للانتساب إليها وهذا فخر لها ولنا. ولكنها عراقية وكانت في أرض العراق.